

مستويات اللغة من خلال رسائل المجاهدين

وبيانات الثورة التحريرية

عبد الحميد ختالة

المركز الجامعي خنشلة

في ظل التضيق الشديد الذي مارسه قوات الإستعمار الفرنسي على الثورة التحريرية في الجزائر أصبح من الصعب جدا إيجاد قناة للتواصل بين قيادات الثورة فيما بينها وحتى بينها وبين المواطن، وإضافة إلى انعدام قنوات التواصل العصرية كانت الأداة الوحيدة لذلك هي الرسالة المكتوبة.

فما هي طبيعة الرسائل والبيانات الثورية؟ وكيف كانت مستويات الخطاب فيها؟ أي نوع من لغة الخطاب هيمنت على رسائل المجاهدين؟ وهل كان الإهتمام باللغة أو بالبلاغ في رسائل جيش التحرير وبياناته؟ هذه بعض الأسئلة التي أحاول الإجابة عنها من خلال مجموعة رسائل نعتمدها كوثيقة تاريخية للموضوع الذي تناقشة هذه المداخلة.

لغة الخطاب من خلال رسائل المجاهدين

وبيانات الثورة التحريرية.

يأخذ الحديث عن اللغة العربية ومكانتها كلغة تحمل كل المقومات الحضارية الكثير من الدلالات. ولعلي- في هذه المداخلة- لن أصيب كبذ الحقيقة إن خضت في ذلك. ذلك أن درجة الاختلاف واسعة عندما يتعلق الأمر بنمط التفكير في معالجة القضايا اللغوية، حيث تتباين الطرق والأساليب، ولكن لن نكون كذلك إذا ما تعلق الأمر بتحديد مستوى اللغة وعناصرها الأساسية التي

ميزت استعمالها في الجزائر، في مرحلة كان الكثير يشكك في أنها أرضا عربية ينبض فيها الدم القومي العربي، وينطلق لسانها مفتخرا بلغته العربية. متحديا هيمنة الإستعمار الذي بقي أكثر من مئة وثلاثين عاما يجرع أبناء هذه الأرض لغة "هيقو" التي لم تكن تُرفض لو خير الجزائري في تعلمها. بل إنها أصبحت لونا من ألوان الشراسة الاستعمارية.

فهل نجحت الثورة التحريرية في المحافظة على سلامة اللسان والقلم الجزائريين الناطقين بالعربية فخرا وإحياءا لروح العروبة السارية في دماء هذا الوطن؟ ولذلك جاءت هذه المداخلة لتبحث في الاعتناء بجانب من اللغة العربية الفصحى من حيث الاستعمال العفوي غير المتكلف. وهو اللغة التي كتبت بها رسائل المجاهدين وبيانات الثورة التحريرية. حيث في ظل التضيق الشديد الذي مارسه قوات الإستعمار الفرنسي على الثورة التحريرية في الجزائر أصبح من الصعب جدا إيجاد قناة للتواصل بين قيادات الثورة التحريرية في الجزائر، فيما بينها وحتى بينها وبين المواطن. فكانت أداة التواصل الوحيدة هي الرسالة المكتوبة.

من هنا جاء هذا التساؤل في طبيعة الرسائل والبيانات الثورية؟ وأي نوع من لغة الخطاب هيمن على تلك البيانات؟ وهل كان الإهتمام باللغة أو بالبلاغ في تلك الرسائل؟

عشية إنذلاع الثورة التحريرية كان لزاما على قادة الثورة إيجاد طريقة لتقريب الاتصال بين المجاهدين وقادتهم في الولايات. فظهرت الرسائل المكتوبة التي يتولى نقلها رجال، أول ما يمتحن فيهم السرية التامة والتكتم، حتى وإن وصل الأمر إلى الاستشهاد. وكم نقل لنا التاريخ أحداث أشخاص قاموا بابتلاع الرسائل خوفا من أن تقع بين أيدي العدو لما تحمله من أخبار سرية. وقد انقسمت رسائل الثورة إلى أنواع عدة. أحصيت بعضها فيما يلي:

I - تقارير العمليات الحربية والحملات العسكرية

إذا كان من الطبيعي أن تقاس قوة الثورات بانتصاراتها. فإن لفعالية الجهاز التنظيمي والإداري الدور الكبير في تنسيق النشاطات وتسييرها على النحو الذي يبرز أنها ثورة منظمة وليست جماعة من المتمردين، ولقد كان هذا التنظيم المكتبي محكما " فليقادة القسم مركز بالكتاب. وهو مركز متنقل كبقية مراكز الثورة وللناحية مركز كتابها الخاصين، وكذا المنطقة. وأخير الولاية، ولعل ما كان يميز هذا التنظيم المكتبي هو النقص البشري، لقلة المتعلمين الأكفاء، والذين كان أغلبهم من حفظة القرآن الكريم.

كما عملت هذه التنظيمات على استخدام سكان المناطق الجبلية التي كانت معقلا لها ضمنا للسرية. ويزداد عدد الكتاب على مستوى الناحية والمنطقة ليصل إلى فوج من اثني عشر مجاهدا. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك من المراكز ما تستعمل اللغة الفرنسية، إلا أن ذلك كان بشكل محدود جدا.

ومن سبيل المثال لا الحصر نذكر بعض أنواع التقارير، منها:

- التقرير الإداري للجيش
 - // // للشعب.
 - التقرير المالي / العسكري / النظامي.
 - تقرير نتائج الإخبار.
 - تقرير عن الجالية الأوروبية بالجزائر.
- وسأعرض هنا نموذجا من هذه التقارير. كما أشير إلى أن هذه التقارير تختلف عن بعضها البعض بحسب الكاتب وموضوع التقرير: وهذه وثيقة بخيط اليد:

الحمد لله

الجمهورية الجزائرية

ولاية 2 منطقة

جبهة وجيش التحرير

جهة 3 قسم 3

الوطني

أعمال عسكرية

الإشتباك:

في يوم 1960/08/16. وقع اشتباك بين خمسة جنود من جنودنا وجيش العدو. ودام الإشتباك مدة ساعتين. وكانت النتيجة من طرف العدو بـ 12 عسكري قتلا و9 مجروحين. أما من طرف جنودنا فقد استشهد من الفرقة I وألقى العدو القبض على عامل آخر وأخذ العدو السلاح من الفرقة I ما ص 06.

كمين:

في يوم 1960-08-20 قام العدو بتطويق على ستة قرى من دوار رقم 7، وعند وجوعه في الساعة السادسة والربع مساء على دشرة البهلول نصب له نصف فوج من الفرقة 2 والبعض من سعاة البريد كمين وعند دخوله في الكمين اطلقوا عليه وابلا من الرصاص فقتلوا سبعة جنود فرنسيين

هذا من جانب العدو أما من جانبنا فقد جرح جندي بجروح خفيفة وكان هذا بدشرة البهلول دوار باينان بالبعد عن قرية رجاس بـ 20 كم شمال شرقي وقد دامت المعركة 20 دقيقة.

إدارة القسم 3

تُرَاعَى هذه التقارير الحربية في كتابتها نمطا معينا، حيث تبدأ بالتعريف بالجهة المقررة. ثم تحديد نوع العملية إن كانت (اشتباك أو كمين أو نصب ألغام) وبعدها يلجأ صاحب التقرير إلى وصف وقائع العملية وأهم نتائج العملية الحربية

حيث تتميز هذه التقارير بالاختصار الشديد. فتقتصر على ذكر أهم الأحداث وأهم النتائج، متفاديا بذلك التطرق إلى التعليق الشخصي على الأحداث. بمدح أو ذم، بقبول أو رفض.

وتجدر الإشارة هنا إلى التمييز بين تقارير العمليات الحربية وتقارير الحملات العسكرية. ذلك أن العملية الحربية عادة تكون بين طرفين عسكريين من جنود الإستعمار ومجاهدي جيش التحرير. أما الحملات العسكرية فهي عبارة عن تمشيط عام تقوم به قوات المستعمر في القرى والمداشر بحجة البحث عن المجاهدين.

كما أن تقارير المواجهات الحربية تكون مضبوطة النتائج أما الحملات العسكرية فتقاريرها تبقى مفتوحة لتدوين ما يجدر. هذا ما يجعل الاختلاف واضحا في لغة تقارير العمليات الحربية، التي تكون لغة موجهة إلى التحديد العددي للنتائج في حين أن لغة تقارير الحملات العسكرية تتميز بالإنشائية والوصف لما حدث ويحدث.

حتى وإن إقتصر الموضوع على نماذج قليلة، فإن الملاحظ على هذه التقارير أيضا أنها تقترب من حيث طول التراكيب وقصرها إذ تتميز الجملة بالقصر والتكثيف الدلالي، وهذا بالتأكيد يدخل ضمن منهجية كتابة التقارير الحربية.

II - تقارير التمويل والحسابات المالية:

أما الأنماط الأخرى من التقارير فهي تختلف عن هذه الأولى، باعتبار أنها تخص جانب التمويل وتقارير الحسابات المالية والإشتراكات. فقد أحكمت الثورة تنظيم الاشتراكات الفردية لتمويل الكفاح المسلح. وجعلته واجبا على كل مواطن. وقد كُلفت لجان خاصة يجمع الأموال المتمثلة في الاشتراكات والتبرعات والترغيم الذي يمسّ بعض المتقاعسين عن الإسهام في الثورة ولا يملكون عذرا لذلك. حيث تقوم هذه اللجان بتسجيل أعمالها في قوائم لا يمكن أن نرصد الجانب اللغوي فيها لاعتمادها لغة الأحصاء والأرقام في ذلك.

في حين يمكن للباحث في هذا المجال أن يرصد مستوى لغة التواصل من خلال الرسائل التي ترسل إلى أشخاص معينين لحثهم على الإسهام والبذل ونورد كمثال على ذلك هذه الرسالة:

الحمد لله والله أكبر والعزة للجزائر والنصر للمجاهدين

جيش التحرير الوطني الجزائري جبهة التحرير الوطني الجزائري

المنطقة الأولى

الولاية الأولى 58/05/8

قسمة أبي طالب.

"الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون" قرآن كريم.

وبعد.

إلى الأخوة - المواطنين السادات الأخضرين حموبن العشايوي والدراجي بن حمو يروية فإن النظام يطلبكما وبصفتكما جزائريين وتحاكمان وتكافحان على الجزائر بكل ما تملك أيد يكما من عزيز وغال في خدمة القضية المقدسة وتدعيم منح السعادة للوطن والحرية للشعب.

أن تسهما بإعانة مالية قدرها (12000) يوم 13.05.58

فلكم مني وافر الشكر ومن الله الأجر والثواب.

الناحية الرابعة

القسمة الثانية

تتميز هذه التقارير بتحديد الفترة الزمنية للاشتراك. مع ذكر أسماء المشتركين وتحديد المبالغ المالية ثم ذكر الهيئة القابضة للاشتراك. هذا ما يجعل هذه التقارير مضبوطة منهجيا حيث يُتبدأ بتحديد الجهة المؤطرة للاشتراك ثم الاستهلال بآية

من القرآن الكريم. تُعتمد أساسا لتحفيز الهمم واستثارة النفس للبذل. كما تضيف صبغة الشرعية الدينية على قنوات إيداع هذه الأموال التي لا تكون إلا إسهاما في الثورة وتدعيما للكفاح.

نقرأ من خلال هذا النموذج المختار كمثال، لغة تهتم بالرسالة في حد ذاتها أكثر من اهتمامها بالتنميق التركيبي والبلاغي فالأمر يستدعي المباشرة والوضوح؛ مع التركيز على العبارات ذات الشحنة العاطفية القومية والدينية، (بصفتكما جزائريين، القضية المقدسة، السعادة للوطن والحرية للشعب). هذا دون أن يغفل على اهتزاز الجانب النحوي والتركيب في هذه التقارير التي تتفاوت نسب الأخطاء النحوية فيها. وهذا يرجع كما سبق الذكر إلى مستوى الكاتب. وظروف عمله وإن كانت مثل هذه الدراسة تحتاج إلى أكبر عدد ممكن من النماذج حتى نقف على المستوى الحقيقي للغة، هذه التقارير اهتمامها بالجانب اللغوي الصرفي والبلاغي.

ندرج تحت هذا النمط من التقارير تلك التي تهتم بأحوال منكوبي الحرب لضبط الخسائر المسجلة في هذا المجال. وتتميز هي الأخرى بهيمنة لغة الأسماء والأرقام وقلة التراكيب التعبيرية.

III- التعليمات والأوامر:

حتم الظرف الذي عاشته الجزائر في مواجهة أعني قوة في العالم آنذاك. على تنظيمات الثورة التحريرية الإرتجالية وعدم الانضباط. إذ لم تسمح ظروف الحرب بالتريث من أجل صياغة قوانين وفق نظام بروتوكولي معين، وإصدارها بعد المصادقة عليها إلى السلطات والهيئات المكلفة بتنفيذ هذه الأوامر ولأجل ذلك كانت الحرية المطلقة لكل سلطة في صياغة أوامرها وتعليماتها على الوجه الذي تقتضيه الحالة لتسيير الهيئات السياسية والعسكرية وكمثال على ذلك نورد هذا النموذج لجزء من رسالة موجهة إلى مسؤول اللجان، والتي تُحدد بعض المفاهيم والغايات:

"ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون"

جيش وجبهة التحرير الوطني الجزائري.

ولاية 1- منطقة 2 ناحية 4 قسيمة 3

من الأعمال التي يتطلبها النظام من مسؤول اللجن.

1- الإخلاص في الأعمال لله وللرسول وللوطن الجزائري المفدى والتجرد من أقوال الوقاحة والأعمال الخبيثة.

بحيث يتخلق المناضل بأخلاق الجندي الطاهر الأبى الذكي المؤمن بالحق فوق كل شيء وخدمة الوطن قبل كل شيء.

2- تربية الشعب على المبادئ الإسلامية والقوانين الثورية وإنقاذه من الدعايات الاستعمارية التي تتنافى مع أهدافه الوطنية كالمشاركة في الانتخابات والاعتراف بالإطار الفرنسي المرفوض من طرف ممثليه الأحرار أمام الجمعية الأممية.

3- السهر على تنظيم الشعب وحمايته من شر الخونة أعوان الإستعمار وإبعاده إبعادا كليا من التجنيد في الجيش الفرنسي. وإرتباطه إرتباطا وديا متينا بجيشه التحريري الوطني الجزائري المسلم المجاهد بماله ونفسه في سبيل حرية الجزائر واستقلالها. (هناك جزءا من التعليمات).

- وإذا تعدى مسؤولو اللجنة هذه الحدود وتغافل عن تطبيق هذا فالنظام يتولى بحته وإستنطاقه وعقابه كل الجزائريين مسؤولون أمام الله والتاريخ على (الإقتصاد) وذلك لطرد الخطر عن (ميزانية) الجيش وشعبه والسير بهما في طريق التحسن، وإذا طبقنا هذا كله ودائما نطبق أوامر النظام ننال حقنا في الحياة ونستبشر بنعمة من الله وفضل ونتفاعل بطلوع شمس الحرية والاستقلال في قطرنا الجزائري الذي من أجله نموت ومن أجله نحيا

الإمضاء

المسؤول السياسي عبد القادر

المسؤول العام للقسيمة 3 / 24 / فيفري / 58

وإذا كنا أوردنا هذا النموذج من التعليمات، فذلك بقصد الإشارة إلى اختلاف لغته عما سبق من التقارير، حيث أظهر هذا النص مدى تمكّن المسؤول السياسي من اللغة العربية الفصحى، إذ تقلّص استعمال العامية في هذه الوثيقة، كما نلمس جانبا من المنهجية في تقسيم التقرير الذي يمكن أن نحدد جانبه المضموني كما يلي:

- تحديد الجهة الرسمية المشرعة للتعليمات
- تحديد // المقصودة والموجهة إليها.
- تحديد مواد التعليمات بفقرات محددة ومتفرقة
- اعتماد الألفاظ الصارمة التي توحى بمدى مسؤولية الخطاب وانضباطه، من مثل (يجب. بأمر. نذّر. ممنوع)
- تجنب تحديد الطرف المعني بالأمر باسم خاص لأن الأحكام تخص المسؤوليات بعامّة.
- ظهور منهجية التقدم
- مراعاة نضام المقدمة والعرض والخاتمة.
- مراعاة شعور المتلقي باستدراجه من خلال الاعتماد على النص الديني والشعور القومي.

VI- الرسائل:

شكلت الرسائل الحلقة الوطنية بين أجهزة الثورة، هيئات وأشخاصا فرادى، ومع صعوبة التنقل إلا أن الهيئات الخاصة بالاتصال جنّدت أفرادا عرفوا بالمسبلين وهم غير المنضمين بصفة رسمية إلى صفوف الثورة، وكانوا يسهرون على نقل هذه الرسائل معتمدين في ذلك على السير على الأقدام وتجنّب الطرق

والمسارات المكشوفة لقوات العدو حفاظا على أرواحهم وعلى ما يحملونه في هذه الرسائل من أخبار.

وقد تميزت هذه الرسائل بمنهجية تكاد تكون موحدة في معظمها، وهي البداية بالتقدم، عرض الموضوع ثم اختيار صيغة الاختتام. كما لم تخلو هذه الرسائل في معظمها من تناقل آخر الأخبار عن العمليات العسكرية وتحركات العدو. حيث يعتمد المراسل بعد الإخبار عن أحواله إلى ذكر أهم ما يجدر على ساحة المعارك، ثم بعد ذلك السؤال عن أحوال المرسل إليه وأجواء الحرب في منطقته. وهي رسائل بين أفراد بأسمائهم أو بين هيئات، أو بين هيئات أشخاص معينين. وحتى نقرب من هذه الرسائل فنختار هذا النموذج:

الجمهورية الجزائرية

جبهة وجيش التحرير الوطني

هيئة أركان الحرب

الولاية 3

في... 62/3/8

حضرة الأخ الروحي المساعد سي الطاهر تحية وطنية خالصة وأشواقا حارة ودية وبعد إنني في شوق إلى رؤيتك لأني أعتريك كأعز أبنائي الأوفياء ودائما أسأل كل من يتصل بي عن شأنك وحالتك. ومازلت أتذكر تلك اللحظة التي فارقني فيها وأعينك الدامعة في (قادمات) من الناحية الثالثة. وذلك عندما ألزمتك شيئا كان أثقل عليك من الحديد وأنا - علم الله - إنما أريد أن تربي تربية ثورية. وتتكون من مدرسة الثورة كرجل عظيم. وكبطل حكيم تحمي الجزائر العزيزة. وتدافع عنها بأفكارك ونشاطك. كما دافعت عنها بسلاحك ورشاشك.

ولدي الرّوحي الشيء الذي أتمناه لك هو التوقيف العلمي والنجاح الدائم، وأرجوك أن تخبرني عن جميع حالتك الخاصة وحالة الشعب بتلك الجهة التي أنت فيها، وحالة الجيش بصفة أخص. كما أرجوك أن تكاتبني دائما عما يتجدد من الحوادث في تلك الجهات القريبة منك. وإذا كانت الحالة حسنة هناك فسأتصل بكم إن شاء الله أما حالي في ناحية الصحة الجسدية لا بأس أما من ناحية رجلي فعاطلة لا أستطيع أن أقطع إلّا مسافة غير طويلة.

تقبّل في الختام تحياتي الحارة بلغها إلى كافة المسؤولين هناك وخاصة رئيس الناحية عمي الربيع وجميع الجنود والشعب. ودمتم مستعدين حازمين

أخوكم الضابط الثاني

الشيخ يوسف

الإمضاء.

تختلف الرسائل من حيث القصر والطول على حسب الغرض بالدرجة الأولى. كما يُعزى الجانب التعبيري إلى المستوى التعليمي لصاحب الرسالة. حيث نلاحظ تقدما في مستوى الإعتماد على فصيح اللغة العربية مع بقاء انتشار الأخطاء النحوية والإملائية - وهذا بالذات المستوى الحقيقي الذي بلغته اللغة العربية الفصحى في الجزائر في مرحلة الاستعمار. ذلك أن الموضوع الحقيقي الذي يسترسل فيه المتكلم أو الكاتب. هو موضوع الأُنس.

كما يكون مخاطبا لشخص مأنوس كصديق. وفيه يكثر التخفيف والفصح وهذا ما يُعرف عند سيبويه بسعة الكلام والاختصار.

كما نقرأ في هذه التقارير والرسائل ذلك المستوى المأنوس من العربية الفحصى، الذي يمكن استعماله في الحياة العادية البعيدة عن التحقيق في التمييز بين همزة القطع وهمزة الوصل.

وليس في هذا دعوة إلى إخضاع قواعد اللغة العربية الفصحى للعامي. وهنا تجدر الإشارة إلى النظر إلى ذلك المستوى الذي كُتبت به رسائل المجاهدين وتقاريرهم وهم يبحثون عن العربية الفصحى. حتى إنهم إخششوا في نطق الفصحى من اللغة العربية بحثا عنها فأخطؤوا الوسيلة وأصابوا الغاية.

وإن كانت هذه التقارير والرسائل قد ضمنت سلامة المنهج الذي على وفقه كُتبت، إلا أنها كانت تبحث في معظمها على لغة توافق النمط الذي تنطوي تحته في محاولة لإيجاد ما يسمى بالحقول الدلالية فالفاظ الرسائل تختلف عن ألفاظ التقارير بأنواعها وتراكيبها. كما اختلفت لغة التقارير فيما بينها. وهذا ما يُبرز سلامة لغة الخطاب في مجال من الكتابة إبان الثورة التحريرية.

كما غلبت أساليب الخبر والاستفهام على كل النصوص. وذلك تحقيقا للغاية المرجوة من الرسائل التي تكون عادة سؤالا عن الآخر وإخبارا عن الأنا. وهذا ما يُضفي طابع الوصفية على النصوص، والمباشرة في ولوج الموضوع.

وما يُمكن أن نصل إليه أخيرا هو أنه إذا كان كاتب رسائل وتقارير الثورة قد وقع في أخطاء تركيبية ولغوية، إلا أنه لم يقع في جريمة التخلي عن هذه اللغة التي تشكل جزءا كبيرا من هوية الجزائري.

مراجع

- 1- بوطمين جودي الأخضر، لمحات من ثورة الجزائر. نقلا عن عيسى بن سديرة. استعمال اللغة العربية - إبان الحرب التحريرية الجزائرية